يقول الله عزوجل في محكم التنزيل: "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (آل عمران-31)

ويقول سبحانه وتعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" (الأحزاب-21)

أيها الإخوة الكرام: إن محبة النبي ﷺ أصل عظيم من أصول الدين، وهي لازمة وتابعة لمحبة الله سبحانه وتعالى، كما أن محبة الله للعبد يشترط فيها اتباع النبي ﷺ ومحبته، فإذا أراد العبد أن يكون ممن قال فيهم الله عزوجل: "فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ " (المائدة-54) وقال سبحانه: "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ" (المائدة-100)

فلابد من اتباع سنة النبي ﷺ والاقتفاء لأثره والتخلق بأخلاقه. بل إن محبته ﷺ شرط في كمال إيمان العبد، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (البخاري-15 \\ مسلم-44) فلا تكتمل محبة المسلم للنبي ﷺ ولا يكتمل إيمانه ولا يذوق حلاوة وطعم الإيمان حتى يكون حبه للنبي ﷺ فوق محبة الناس أجمعين، كما أكد ذلك النبي ﷺ في حديث آخر أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس قال: "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" (البخاري-16 \ مسلم-43)

فالذي يذوق طعم الإيمان ويستشعر حلاوته هو الذي يتحلى ويتزود بهذه الخصال الثلاث، وأولها التي ذكرت في الحديث، هي أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من كل شيئ، من ماله وولده وأهله ومن الناس أجمعين، بل حتى من نفسه، جاء في صحيح البخاري: أن النبي ﷺ كان مع الصحابة، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَبْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ" فَقَالَ لَهُ عُمَرُ فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْآنَ يَا عُمَرُ" (البخاري-6257)

فبعد ما فكرعمروتدبر، ورأى أن النبي ﷺ كان هو السبب في إخراجه من الظلمات إلى النور، وفيما أصبح فيه من إيمان بعد كفر، وما وصل إليه من عزبعد ذل عندها علم بأن النبي ﷺ أحق بأن يكون أحب إليه من نفسه، فأقربذلك عمرواعترف للنبي ﷺ.

فمحبة النبي ﷺ مطلوبة وواجبة، فعلى الأمة أن تعمل على ما يوجب تلك المحبة. وأن تعلم أبناءها وترسخ فيهم محبة النبي ﷺ منذ الصغرحتى تكبرالأجيال وهي عارفة ضروريةمحبة نبيها ﷺ ، وهذا لا يقوم به ألا من رحم الله، إلا القلة القليلة من المسلمين، فغالب المسلمين يعلمون أبنائهم ويحببون إليهم العلوم الدنيوية من طب وحساب وتعلم لغات أجنبية، ومن ممارسة نوع من أنواع الرياضة وغير ذلك مما يعيشه الناس في حياتهم اليومية، وكل هذا الذي ذكرناه مشروع ومحمود، لاكن لا ينبغي أن نهمل أبناءنا تعلم الجانب الديني، من محبة الله ومحبة رسوله ﷺ، وتعريفهم بدين الإسلام وشعائره، وتعليمهم القرآن، ولغة القرآن التي لا يمكن للمرء أن يفهم دينه فهما صحيحا كاملا إلا بفهمها وتعلمها، وقد أوصى عمربن الخطاب بذلك لما رأى من أهميتها وعظيم شأنها فقال رضي الله عنه:

"تعلموا العربية فإنها من دينكم وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم"

إذن فمحبة النبي ﷺ ليس أمرا اختياريا، بل هي من الواجبات. وهي أصل من أصول ديننا الحنيف، فلهذا ينبغي الأخذ بأسبابها، ومجاهدة النفس لاكتسابها.

ولتحقيق محبة النبي ﷺ والوصول إلى هذه الغاية النبيلة طرق شتى وأسباب كثيرة، وأول هذه الأسباب وأ صلها وأعظمها، هو معرفته ﷺ معرفة تامة، فكل شيئ يحبه الإنسان لابد وأنه يعرفه، فلا يمكن للمرء أن يحب شيئا يجهله، ومعرفة نبينا ﷺ تكون بدراسة وقراءة كتب السير للاطلاع على سيرته العطرة وأيامه الخالدة، وتكون أيضا بقراءة ومدارسة أحاديثه النبوية الشريفة، وتكون بالنظر والتأمل في آيات الله المعجزة الخالدة. فقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله عزوجل تعرف بهذا النبي الكريم، ويمدحه فيها ربنا سبحانه وتعالى.

سنقف اليوم إن شاء الله مع شيئ من حياته ﷺ من خلال آية تعد من أعظم الآيات التي مدح الله فيها نبيه ﷺ، قال سبحانه وتعالى في مطلع سورة القلم: "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم-1 إلى4) ففي هذه السورة يقسم الله عز وجل بأدوات المعرفة التي تستحق أن يقسم الله بها على براءة نبيه ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون، وبشره على صبره المتمثل في حسن الخلق بالأجر الكامل الغير المقطوع في الآخرة، وأكد ذلك الخلق الحسن في نبينا ﷺ بأدوات من القسم فقال له سبحانه وتعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" (القلم-1 إلى4) ففي هذه الآية الكريمة يزكي ربنا عزوجل حبيبه ﷺ بحسن الخلق الذي هو من مكارم الأخلاق وكمالات الأخلاق، كما أخبر عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داوود من حديث عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ" (أبي داوود-4798) فحسن الخلق من أعظم الطاعات والقربات التي ينبغي للمسلم التحلي بها والحرص عليها.

ولهذا رغب النبي ﷺ فيه في حديث آخر رواه الترميذي من حديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: "مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ" (الترميذي-2002) وهذه صور من عظيم خلقه ﷺ نعرضها لنقف ونرى كيف كان يعيش قدوتنا ﷺ حياته مع مجتمعه الذي حوله.

جاء في صحيحي البخاري ومسلم أن عائشة رضي الله عنها سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ" فحياة نبينا ﷺ كلها متمثلة في القرآن الكريم، فكان ﷺ يتأدب بآداب القرآن ويتخلق بأخلاقه، ويتعظ بأمثاله وقصصه بتدبره وحسن تلاوته.

وكان من جملة أخلاقه ﷺ مع الناس الإحسان إلى أهله وأقاربه، فقد كان ﷺ يحسن إلى أهله في معاملتهم أشد الإحسان. فيرأف بهم ويتودد إليهم، وكان ﷺ يلاطفهم ويمازحهم ﷺ، ولهذا كان من وصاياه ﷺ الإحسان إلى الأهل والأولاد. يقول ﷺ في الحديث الذي رواه الترميذي وغيره من حديث عائشة قالت: قال رسول ﷺ : "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" (الترميذي-3895)

وقد كان عليه الصلاة والسلام حقا خيرا لأهله كما قال،فقد كان ﷺ رغم ما أوتي من مسؤوليات وأمانات عظام في مجتمعه مع أحبابه وأعدائه رغم ذلك كله كان عليه الصلاة والسلام يساعد أهله ويعينهم في أمور البيت ويقضي حوائجهم.

جاء في صحيح البخاري أن عائشة سئلت عن النبي ﷺ ما كان يصنع في بيته؟ فقالت: "كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ" (البخاري-644)

فكان ﷺ يخدم أهله تواضعا لله عزوجل، وتربية لأمته من بعده بأن لا تركن إلى الرفاهية الفرطة التي تؤدي إلى كسل النفس وترفعها، وهكذا كان خلقه ﷺ مع أصحابه، فكان يتواضع لهم ويسمع من كبيرهم وصغيرهم، وغنيهم وفقيرهم، وعالمهم وجاهلهم، وكان ﷺ إذا جاءه أحد استقبله وتواضع له ورحب به، وكان لا يديروجهه ﷺ عن أصحابه إذا تكلموا معه حتى يتم أحدهم كلامه، وكان إذا صافحه أحدهم لا ينزع يده ﷺ حتى ينزعها الصحابي تواضعا وتأدبا منه ﷺ ، جاء في حديث أبي داوود والترميذي أن أنس بن مالك قال: "إِذَا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ فَصَافَحَهُ لَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ يَنْزِعُ" (الترميذي-2490)

كما كان يكره عليه الصلاة والسلام أن يقوم أحد إعظاما وإجلالا له، ويخبرهم ﷺ بقوله: "مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّارِ" (أبي داوود-5229).

هكذا كان ﷺ يتعامل مع صحابته رضوان الله عليهم ويربيهم على محاسن الأخلاق. وأيضا كان ﷺ حسن الخلق في تعامله حتى مع الأطفال الصغار، فكان إذا مربهم ألقى عليهم السلام، كما جاء في صحيح البخاري ومسلم عن انس رضي الله عنه: أَنَّهُ مَرَّعَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُهُ" (البخاري-5893)

وهذا من تواضعه وحسن خلقه ﷺ ، ومن التربية وحسن التعليم والإرشاد والتوجيه، فالصبيان إذا سلم الإنسان عليهم، فإنهم يعتادون ذلك ويصبح غريزة في طبائعهم ونفوسهم.

وجاء في الحديث المتفق عليه أنه كان ﷺ يحمل أمامة بنت زينب وهو يصلي بالناس فإذا قام حملها وإذا سجد وضعها ﷺ .

أما معاملته مع خدمه ﷺ فكانت هي الأحرى في قمة الحسن وكمال الأخلاق، قال أنس رضي الله عنه في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم: "خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَسِنِينَ وَاللَّهِ مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا" (مسلم-2309)

تمر على أنس عشر سنوات وهو يعمل مع النبي ﷺ ولم يسمع منه كلمةتجرح فؤاده أو تكسر خاطره.

بل ثبت عنه أنه ﷺ لم يضرب خادما أو متعلما ولا امرأة قط، عن عائشة رضي الله عنها قالت: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ" (مسلم-2328)

ثم إن حسن خلقه ﷺ لم يقف عند دائرة المسلمين من مجتمعه، بل كان خلقه وحسن تعامله حتى مع أعدائه وأعداء المسلمين.

فها هو ملك الجبال يأتيه يوم الطائف الذي ذاق من أهله أشد الأذى والعذاب، فسأله الملك قائلا: إن شئت يامحمد أطبقت عليهم الجبلين؟ ويقول صاحب الخلق الرفيع لا: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" (البخاري-3059 \ مسلم-1795)

فلا زال عليه الصلاة والسلام يرجوا لهم الخيروالفلاح رغم ما فعلوه به ﷺ .

و من حسن خلقه مع أعدائه ﷺ يوم دخل مكة فاتحا لها، فيقول لكفار قريش:"يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم" قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

فعفا عنهم ﷺ بعد ما أمكنه الله منهم امتثالا لقول الله عزوجل: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف-199)

إذن كانت هذه أيها الإخوة الكرام وقفات يسيرة مع حبيبنا عليه الصلاة والسلام في بيان كمال أخلاقه، وحسن تعامله مع جميع الكائنات، لعلنا نصل بها إلى ما يقربنا إلى حبه والاقتداء بسنته والسير على طريقه ونهجه، حتى نكون ممن ينالون شفاعته ويسقون من حوضه ﷺ

نسأل الله عزوجل أن يشملنا بشفاعة نبيه الكريم وأن يسقينا من يده الشريفتين شربة لا نظمأ بعدها أبدا.

قال فيهم الله عزوجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (المائدة-54) وقال سبحانه: "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (المائدة-100)